الأديب

محمد القيسي

محمد القيسي بين الواقع والأسطورة

سناء تايه*

حياته

شاعر من فلسطين، عاش حياة المنفى واللجوء، قدّم لشعبه نبض الكلمة المؤثّرة، والشعور الصادق الحزين، شارك غيره من شعراء فلسطين في تحمّل عبء القضيّة الفلسطينيّة، وثقل المسؤوليّة الوطنيّة. ولقب بألقاب متعدّدة، منها: "مغني فلسطين، وشاعر الموت، وشاعر العذاب، والشاعر الجوّال، وشاعر الحزن، والفتى الكنعاني، وجوّال الشوارع، وصائد الصور، وعازف النصوص"، إنّه محمّد خليل إبراهيم القيسي، ولد سنة 1944 في قرية (كفر عانة) الفلسطينيّة التي تقع قرب مدينة يافا[1]. بعد هجرة 1948 تنقل مع أسرته بين عدد من مخيمات اللاجئين في الضفة الغربية، مثل مخيّم الجلزون في رام الله، الذي عاش فيه حياة البؤس والفقر، وذكره في قصائده، يقول:

"الليل في الجلزون، مد لنا سلالم من سهاد/ وحكاية مجروحة الأبعاد، ما زالت تعاد".[2]

وفي مدارس الضفة الغربية درس محمد القيسي المراحل الدراسية الأولى قبل أن ينتقل إلى بيروت لينال شهادته الجامعية الأولى في الأدب العربي عام 1971.[3]

عرف القيسي التيه والتجوال بين العواصم العربية مبكراً بعد تخرجه، حيث عمل في التربية والتعليم في مدارس السعودية، قبل أن يواصل رحلته بين عواصم عربية تلقفته،

---

* جامعة القدس المفتوحة.

[1] . صدوق، راضي. **شعراء فلسطين في القرن العشرين**. توثيق أنطولوجي. ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2008، ص556.

[2] . القيسي، محمد. **كتاب الابن، سيرة الطرد والمكان**. ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997، ص75.

[3] .الجعيدي، محمد عبد الله. **موسوعة مصادر الأدب الفلسطيني الحديث**. ط1. دمشق: مؤسسة فلسطين للثقافة، 2007، ص706.

بدأها ببغداد، ثم دمشق، فبيروت، والكويت، وبنغازي، واستقر أخيراً في عمان حيث استهوته فكرة الكتابة الصحفية.[1]

وتوفي في أحد مشافيها بعد أسبوعين من الغيبوبة إثر جلطة دماغية، وذلك يوم السبت 2013/8/2 عن عمر يناهز تسعة وخمسين عاما.[2]

شاعريته:

إن بدايات إبداعه تفتحت في وقت مبكر، وكان ذلك 1958، أي عندما بلغ من العمر قرابة الأربعة عشر عاما، ولم يكن قد تجاوز المرحلة الإعدادية في دراسته، وعندما نشرت جريدة المساء التي كانت تصدر في القدس أول مقطوعة من شعره.

ومن العوامل التي ساهمت في صقل موهبته الشعرية على رأسها التراث الشعبي الفلسطيني، وأمه حمده ، فهي ليست أما فحسب، إنها نبع ثري للتمويل الشعري، وتأثر بكثير من الشعراء العرب والأجانب منهم على سبيل المثال لا الحصر، إبراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود، ومن الشعراء الأعاجم الإسباني لوركا، والأمريكي وايتمان.[3]

كان شعره يمثل ذاكرة الشعب الفلسطيني، فانحاز في قصيدته لفلسطين كقضية وكإنسان يلملم من خلالها أحزان هذا الوطن، ومعاناة المواطن ونضاله على أرض الواقع، فكانت قصائده قطعا من الفسيفساء كان يؤمن بدور الشعر وأهميّته في إزالة القلق النفسي لدى الشاعر، ويوقظ كلّ ما هو دفين وكامن في ذاته، ويعكس في الآخرين أحاسيس ومشاعر وجدانية ويشحن طاقاتهم الكامنة، إضافة إلى زيادة الوعي والمعرفة.

[1] . مفرح، سعدية. "محمد القيسي (مغني فلسطين المتجول)" **مجلة العربي**، ع618، أيار2011.

[2] . الجعيدي، محمد عبد الله. **موسوعة مصادر الأدب الفلسطيني الحديث**. ص75.

[3] . الأطرش، ليلى. "الشاعر محمد القيسي" **مجلة أوراق**، ع (18-19)، نيسان 2004، ص58.

اهتمّ محمد القيسي بتجويد قصائده وتنقيحها، وأجرى التعديلات اللازمة عليها بما ينسجم مع التطور الزمني، ورؤية الحاضر، ونضجها الفني كعمل شعري مميّز، وأكّد على ذلك بقوله: "لهذا كلّه نقيت قمحي من كلّ ما ظننته زؤاناً" .[1]

فهو عندما راجع نتاجه الشعري في الحقبة الزمنيّة من تجربته الشعريّة (1964-1984) وجد أن هناك قصائد عليه استبعادها أو إعدامها من مجموعاته الشعريّة وأخرى تحتاج إلى أن يعدّل فيها بما يتناسب مع بنيتها الفنيّة؛ إمّا لأنّها من قصائد النثر التي تعوزها نغمة الموسيقى والغناء، أو لعدم مناسبتها مع الحقبة الزمنيّة الراهنة.

فوصف بعض قصائده التي استبعدها بأنها تحتاج إلى ماء الحياة وإلى عصب جمالي قادر على الدخول في امتحان الزمن، يقول: "إذ كيف أجدّد انتسابي إلى شيء ذابل أو ميّت في هذا المجلّد الذي يعني بالنسبة لي تحريري من مرحلة وزمن شعري، باتجاه أفق ليس لي أن أحدّده الآن، أو صمت لا يقولني ثانية، فلأخفّف إذن شهادتي من كلّ ما علق بها من أعشاب أو نبات ضار".[2]

كان الشاعر محمّد القيسي موهبة كبيرة في قصائده حيث النضج الفني لديه مكتمل، وصاحب رسالة في شعره، ورسول لكلمة صادقة، وهمّ كبير يثقله دفق كثيف من الحزن والشجن، فكان خير ممثّل لقضيته وقضيّة شعبه في ترحاله وسفره ومنفاه، فلم يكن الشعر لديه ترفًا أو لعبًا بالكلمات، بل أداة طيّعة في يده يوجهها نحو حلم العودة، ومواجهة القسوة والظلام، وإحقاق الحق. ويؤكّد ذلك في تساؤله مع نفسه لم كان يكتب الشعر؟ فيجيب: "هل لأقنع نفسي بالحياة، ثمّ لأزداد معنًى؟ وهل أحسّ حقيقة بواسطة الكتابة والشعر أنّني أقترب أكثر من الحلم ومن أغاني أمّي، ومن فلسطين، أم أنّني فقط ألعب بخزائن الذاكرة." [3]

وتؤكد ذلك سعديّة مفرح بقولها:"وهكذا كانت قصائد ذلك المغنّي المتجوّل على أطراف الحزن الفلسطيني موئلاً للتفجّع والأمل في الوقت نفسه، وكانت مفرداته الحزينة مغلّفة دائماً

[1] . القيسي، محمد. **الأعمال الشعرية الكاملة.** بيروت: المؤسسة العربية، 1999، ص7.

[2] . ن.م.، ص6.

[3] . ن.م.، ص7.

بما يشبه التفاؤل، وكانت أوزانه مثقلة بهواجس الوجع الفلسطيني وصور المعاناة التي لا تنتهي في حياة كلّ الأسرة الفلسطينيّة، التي عانت من التشرّد واللجوء والبعد".[1]

كان محمّد القيسي يلتقط كلّ ذلك الوجع المأساوي، والذي بدا في كثير من الأحيان وكأنّه أبدي في عين الذاكرة التي لا تكلّ ولا تملّ ولا تغيّر نظرتها، ويعيد إنتاجها، قصائد لها نكهة فلسطين، ورائحة النضال الحقيقي على أرض الواقع من دون أن يتخلّى عن الشروط الفنيّة، فكانت قصائد القيسي وكلّ ما كتب غيرها قطعاً فنيّة راقية".[2]

ينظر القيسي للقصيدة نظرة خاصّة، فهي بناء فنّي متكامل، يحتاج إلى براعة الباني في إحكامه ووضع أساساته، وهي بذلك وليدة حالة نفسية أو موقف مؤثر، يقول: "أشير إلى أنّي لا أخطّط لكتابة قصيدة، ولا أفترض شروطاً خاصّة، أو مناخاً معيّناً، ولا طقوساً، أعدّ للكتابة، كما ليس من وقت معيّن بالنسبة لي لأكتب".[3]

فقد تفاجئه القصيدة في أي مكان وفي أي وقت في الشارع أو المقهى أو أي مكان آخر، وفي أي حالة كان يعيشها فرحاً كان، أو مسكوناً بالهم والحزن، ومرّات عديدة تكون بلا سبب واضح، يقول واصفًا حالته بأنه يكون "مندهشاً أمام ما يعتريني من حالات، ويصعقني أحياناً بالتماعات أشبه بالرجّة أو الخلخلة، وكالبرق تفاجئني في أي مكان أو وقت، أعني القصيدة".[4]

كما عرف عن الشاعر الغزارة في الكتابة الشعريّة، فقد يكتب القصيدة والقصيدتين وأحياناً الثلاث في يوم واحد، ولم يكن يجد ما يمنع ذلك، ولا يعيبه على أحد. فقد أصدر ما يربو على عشرين ديواناً نشرها في ثلاثة مجلدات، عن كتبه في النثر، وكتب القصيدة الموزونة وقصيدة النثر حيث أشار إلى ذلك بقوله:" وأراني في الوزن، كما أراني في موسيقى النثر".[5] فها هو يعرّف بنفسه، كاشفًا عن هويّته، في قصيدة له بعنوان (الصمت والأسى) قائلاً:

---

[1] . مفرح، سعديّة. "مغنّي فلسطين المتجوّل" **مجلة العربي**، ع(618)، ص15.

[2] . ن.م.، ص15.

[3] . القيسي، محمد. **الأعمال الشعرية الكاملة**، ص9.

[4] . ن.م.، ص12.

[5] . ن.م.، ص14.

"فلسطيني، أجل إنّي فلسطيني/ هويّتي العذاب يظلّ مصلوباً على وجهي ويدنيني/ من الينبوع في وطني، هناك و(كفر عانة)/ وجهي المفقود وجهي الأصلْ"[1].

فهو يؤكّد على هويّته الفلسطينيّة، ويعتز بأصله، وبقريته البعيدة، رغم عذاباته الملازمة له حتى عند موته؛ فأصبح العذاب هويّة له تعرّف شخصيته. فتقول الشاعرة والكاتبة الكويتيّة سعديّة:" إنّه شاعر الحزن المتجوّل في الزمن الفلسطيني الموغل في عذابات القصيدة، وجماليّاتها الأبديّة".[2]

شارك القيسي في مهرجانات ومؤتمرات عربية وعالمية، وحصل على بعض الجوائز منها: جائزة الكتاب الأردنيين 1984، وجائزة ابن خفاجة للشعر من المعهد الإسباني العربي للثقافة 1984 عن ديوان "منازل في الأفق"، وجائزة مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري 1998 عن ديوانه " ناي على أيامنا".[3]

وشارك مهرجان الشقيف الشعري الأول عام 1981، ومهرجان الشقيف الثاني عام 1983، ومهرجان جرش عام 1983، ومهرجان قرطاج في تونس عام 1986.[4]

يعد القيسي واحداً من الشعراء الغزيري الإنتاج في جيله، فقد ترك العديد من الأعمال الأدبية ما بين الشعر والرواية والسيرة، وأعماله بلغت ما يقارب أربعين مؤلفًا[5].

المرأة/ الأم/ الوطن نافذة الحياة في شعره.

ظلّ للمرأة حضورها الواضح في قصائد القيسي وأشعاره، فهي الباعثة على الحياة، إن لم تكن هي الحياة في حقيقتها. وهي أصدق شعور يعيشه الشاعر؛ فيمنح النبض لروحه،

---

[1] . ن.م.، 65/1.

[2] . انظر: مفرح، سعديّة. "مغنّي فلسطين المتجوّل" **مجلّة العربي**، ع(618)، ص14.

[3] . حوار أجراه منذر عامر، "أبحث في المكان عن المكان وعني" نشر في صحيفة **"دفاتر ثقافية"**، رام الله، 1999/2/2.

[4] . إبراهيم، خليل. **محمد القيسي (الشاعر والنص)**، ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1998، ص33.

[5] انظر الملحق في آخر البحث.

والإحساس بالزمن. بل إنّ العامل الأوّل الذي ساعد على تفتّح قريحة القيسي للشعر كانت امرأة، إنّها أمّه حمدة، فأغانيها الشعبيّة كانت مصدرًا لشعره، وزاداً لإبداعه." فكان اسم والدته (حمدة) يلمع كنصل سكين حادّ في ظلمة الزمن، وليالي القصيدة الحالكة السواد".[1]

ويبيّن القيسي ذلك بوضوح في لقاء أجري معه، حيث سئل عن حضور الأم (حمدة) في شعره التي حوّلها إلى بطلة، فكأنّ حضورها يشابه حضور الوطن، فأجاب:" لقد كان حضورها طاغيًا في حياتي، فقد كنت وحيدها، وعاشت حياة قاسية حتى رعتني، كنت دائم الاستماع إليها، وهي أوّل من ربطني بالشعر، فقد كنت أصغي لغنائها ومواويلها الشعبيّة حين كانت تؤدّي أعمالها المنزليّة، تغسل، أو تشعل النار، فأخذت منها هذا الجانب الذي استفدت منه بالفولكلور والأغاني والمواويل، وانعكس هذا كثيراً في أعمالي الأولى".[2]

وقد أكد عمر شبانه ذلك، في مقالة له: "وتتصاعد نبرة الإحساس باقتراب نهاية الإنسان، وتحتل حيزاً لم تكن تحتله في تجربة القيسي الشعرية من قبل، وتتشكل في صور عدة إذ تبدو ثمة علاقة بين حضور المرأة والإحساس باستمرار الحياة، تستمر الحياة بوجود المرأة، وتوجد المرأة باستمرار الحياة، علاقة أساسها الإحساس بالزمن سلباً وإيجاباً، تسارع دقاته أو تباطؤها".[3]

وهو يوضّح نظرته للمرأة في شعره، عندما حاوره الدكتور محسن الرملي. وطرح عليه سؤالاً عن نظرته إلى المرأة، وأنّه وصفها من الخارج، ولم يتناول دواخلها وهمومها وهواجسها بعمق، فأجاب:

"إن المرأة عبر تجربتي الشعرية أخذت أبعاداً أعمق بكثير مما يقول السؤال أو الملاحظة، ذلك أنني لم أتكئ على المرأة، في قصيدتي، كرمز أو دلالة لأرض أو وطن أو ثورة، وبذلك أكون مُغيّبا للمرأة حضوراً وجسداً ومعنى، إن المرأة في شعري، وكما أشرت كثيراً، هي امرأة من لحم

[1] . انظر: مفرح، سعديّة. **م.س.** ع(618)، ص15.

[2] . بدير، فاطمة. **حديث الذكريات**. ط.1. د.م: الدار العربيّة للعلوم، 2004، ص126.

[3] . انظر: شبانة، عمر، **"محمّد القيسي الشاعر الغنائي الجوّال رحل عن 59 سنة"، صحيفة الحياة.** نقلا عن: mailto:http://ofouq.com/today/modules.php?name=News&file=article&sid=2939

ودم، أعرفها، أتفاعل معها، وربما أبكي بين يديها، أو في غيابها، فألجأ إلى الإنشاد كتعويض عن الغياب القاسي، وأن تدخل المرأة كامرأة واقعية في القصيدة فإنما لأضعها في الإطار والمناخ النفسي والاجتماعي، ضمن لحظة تاريخية معينة لا انبتات عنها، ولا تكون هذه اللحظة على حسابها، كما أخذ الحب في القصيدة ألوان هذا المناخ التاريخي والاجتماعي وإذاك يمكن ارتفاع المرأة من مستوى الواقع إلى مستوى الرمز والدلالة، أي إدغام البُعد الذاتي في العام وارتفاعه ليشكل لدي هماً ذاتياً وعاماً في آن... كيف إذن للمرأة في قصيدتي أن تبدو عائمة على سطح الكلام".[1]

"وعشقت يا وطني،/ وكانت من عشقت صبيّة حسناء من يافا،/ فلسطينيّة القسمات تبسم للشعاع/ يطل، يحمل رعشة الأنسام،/ تجزع إذ تلوح خطى الغروب، كانت تغنّي للصباح/ ينداح موج الذكريات على الجفون/ ويروح يصفعني العذاب".[2]

في هذه الأبيات نراه يعود في ذاكرته إلى حب صبيّة فلسطينيّة من يافا، جميلة مبتسمة، فيها ملامح المرأة الفلسطينيّة الحسناء، وهذه المرأة قد تكون امرأة حقيقيّة، يحبّها القيسي فعلاً، ولا مانع من اتّخاذها رمزا لدلالات أخرى، بل إنّ الأحاسيس عنده أحيانا لتختلط لتجمع بين الإحساس بالوطن، والإحساس بالمحبوبة، أو إحساس الأمومة وارتباطه بأغاني أمّه وذكرياته المتخمة بكل ما هو حي.

نجد القيسي في قصائده ينحاز إلى قضيته، وإلى إنسانيته، وذكرياته، ووطنه، والكاتبة الكويتية سعديّة مفرح لمست ذلك في قصائده" انحاز القيسي في قصيدته لفلسطين كقضيّة، وكإنسان، يحمل معاناته على ظهره بالضرورة، وكمواطن يعيش بعيدا عن وطنه، وكفرد

[1] . انظر: الرملي، محسن. "إن الكتابة الآن أصوات بلا صدى" **مجلة الأفق الثقافية**، 1993، نقلا عن: http://ofouq.com/today/modules.php?name=News&file=article&sid=2939

[2] . القيسي، محمد. **الأعمال الشعرية الكاملة**، 38/1.

مسحوق تحت وطأة الإحساس الدائم بالفقد، وكتاريخ حي لا يموت، وينبغي له ألّا يموت، والأهم من كلّ ذلك كوطن... وأي وطن!".[1]

وكان يجد في المرأة نافذة الحياة الجميلة، التي يطل من خلالها على عالم آخر يحلم في العيش فيه، بعيدا عن الموت أو تجنّبا له. خاصّة أنك تسمع أنينا في نسيج أبياته، وتشعر به حزينا متألّما في معظم قصائده، فكأنّه يستحضر الموت باستمرار، بل هو من يمشي إلى الموت في مسيرته الشعريّة، أو هو من كتب سيرة كاملة للموت في أشعاره.

ويؤيّد ذلك محمّد صابر عبيد في مقالته، والتي تبيّن علاقة القيسي بالموت، والحالة الشعوريّة التي كان يعيشها مع الموت في كتاباته، فيقول: "الشاعر محمد القيسي شاعر يمشي إلى موته من دون أدنى شكّ، سيرة حياته، وسيرة شعره هي سيرة الموت بالتمام والكمال، مشفوعة دائماً برؤيا شعرية تنكشف أمامها صورة هذا الموت وموعده، لذا فإن الإنسان والشاعر فيه، يجتهدان في أن يراوغا هذا الموت ويلاعباه، عبر اختراع أساليب مقاومة، وشبكة دفاعات تمارس؛ تأجيلا ما لهذا الموت المتجلي في كلّ شيء، وتشكيل مفاهيم، تقود جميعا إلى الانغمار في الحياة، والاقتصاص منها مقدّما، إذ سعى القيسي الإنسان والشاعر إلى الانقضاض على الحياة، وامتصاص ما تيسّر من مؤونتها؛ تحسّبا للموت القادم أبدا في مشهد الأفق، وسعى أيضاً إلى إبعاد رائحة الموت الماثلة في كلّ خطوة من خطواته، وفي كلّ صورة من صوره، وفي كلّ إيقاع من إيقاعاته[2]."

وقد يكون الحزن مسحة قدريّة حملها الشاعر في داخله، وعكسها في شعره، فإنه لا يندب نفسه ولا ييأس بل يجدد أمله في كل قصيدة يكتبها للمرأة كما يقول:

[1] . انظر: مفرح، سعدية. "مغني فلسطين المتجول" **مجلة العربي**، ع(618)، ص15.

[2] . عبيد، محمّد صابر. **محمّد القيسي سيرة الموت ونبوءة الرؤيا الشعريّة**. دمشق: منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، 2005، نقلا عن: http://www.nizwa.com/articles.php?topic=59&page=30

"يا أم صلاح/ يا سيدة الأيام الصعبة، يا سيدة الليلك والحزن الفواح/ يثقلني أن أتجول فأرى أن الناس هنا غير الناس/ أن أغانينا ذَبُلت/ أن أمانينا رحلت/ أن لياليا لا يسكنها الإيناس".[1]

الحزن بالفعل ليس غلطته، وليس مجال استحقاقه، إنّه صديقه وذاكرته ووليّ عمره. وقد يأتي هذا الحزن على هيئة محرّض خارجي، وقد يلوح بشفافيّة مسحة قدريّة يحملها الشاعر في داخله، ولكنّه دائما ثمّة حزن يتشكل موضوعيّا من الخارج، فتستجيب له استعدادات الشاعر الذاتيّة من الداخل، على أنّ الشاعر لا يضيع بين الصراعين: الداخلي والخارجي. فهو ليس قانطا، ربّما يشكو كثيرا، ولكنّه لا يندب ولا ييأس. فما زالت لديه فسحة للحلم، ومنها يتدفّق الشعر والفرح القسري بالحياة".[2]

فلنسمع إلى صوت الأمل والحياة في قصيدته التي بعث بها إلى الأحباب الذين يقيمون هناك، خلف الأسوار في الأرض المحتلة بعنوان (أغنية في الطريق)، وهي مشبعة بألفاظ (الأمل وعبارات التفاؤل رغم الألم والحزن)، ويؤكد تحقّق الحلم، وانفراج الأزمة المريرة التي يعيشها شعبه خلف الأسوار في الأرض المحتلة، وزوال الاحتلال والتخلص من أسواره وقيوده، يقول:

"أحبابنا/ هل يبسم الزمان مرّة لنا/ وهل يعود حبّنا/ .../ هل يفرح المعذبون في متاهة الضياع؟/ .../ فرعشة الحياة في الفؤاد/ خفاقة المنى،/ تمدّنا ببسمة الأمل/ تنير دربنا".[3]

تعدّدت النساء اللواتي أحبهنّ القيسي وعشقهن حتى أصبح هذا التعلّق بالنساء صفة تميّزه فقد أورد إبراهيم خليل بعضاً من صفاته في ورقة جاء فيها:"ولعلّ الذين عرفوه وأدركوا مثلما أدركت أنا شخصيّا كثرة اعتداده بالنفس، وتعاليه على سواه من الشعراء، والإحساس العارم

[1] . القيسي، محمد. **الأعمال الشعرية الكاملة**، 329/1.

[2] . ن.م.، 675/1.

[3] . ن.م.، 675/1.

بتضخّم الأنا، وشدّة عشقه للنساء ولهاثه وراءهنّ، وحرصه الذي لا يبلغ حدّ الشحّ على المال، يجدون في هذا الوصف لتكوينه النفسي ما يفسّر ذلك تفسيرا مقنعا إلى حدّ كبير".[1]

والمتأمل لحياة القيسي وأشعاره يلحظ ويدرك مدى اهتمامه بالمرأة سواء أكانت المحبوبة أم الأم والحب الأوديبي لها، ونراه في مواقف أخرى يدمج بين الحبين أو الإحساسين، فكأن تعلّقه بأمّه قد جعله يتعلّق ويعجب بكل امرأة يجد فيها من صفاتها أو طباعها، بل يمزج أحيانا بين المرأة والمعشوقة. وقد أورد ذلك أيضاً الدكتور إبراهيم خليل في المناسبة نفسها - تأبين القيسي- وذكر أن المتأمّل لرواية القيسي (الحديقة السريّة) يلمس ذلك، وهو تمازج المرأة المعشوقة بالأم. فالقيسي يصف علاقته بالبطلة صافية قائلا: "أنت رَجلي، تقول لي، سيّدي، وتاج راسي. لكم تكرّر هذا القول! وتدلّلني كطفل مريض، أنا فعلا مريضها المجنون، الأليف، مثل دمعة سماويّة، ولا أريد من هذه الحياة كلّها غير يدها الحانية تأخذني إليها"، ويكرّر هذا في موضع ثانٍ يخاطب فيه تلك المرأة:" أريد أن تقرئي هذه الكلمات إذا متّ بعد قليل، أو هوت الطائرة، لن يعرف أحد كم أحبّك، ولن يعرف الناس كم أصبحت عاشقا في عامي الأخير. أريد أن أبكي فرحا بك، لا تظنّي أنّ الندى لم يبلّلني، أنا طفل كبير".[2]

فهو لا يفتأ يستغيث بالأم ويهرع إليها عندما تجفوه امرأة. ولا يفتأ يتذكّر تلك الأم كلما جمعته بالمرأة مجالس وصل ومقامات عشق. ويؤكد إبراهيم خليل تعلق القيسي بالمرأة عامّة وبأمّه خاصّة بقوله: " كل ذلك يؤدّي بالطبع إلى تعلّق ليس بالأم فقط وإنّما بالمرأة، وقد لا يتجاوز هذا التعلّق بالمرأة محاولات اللاوعي للتعويض والرمز ليس غير، فيكثر الكلام في شعره عنها وعن الأم في تغييب شبه مطلق للكلام عن الأب، وذلك في ظنّي هو أحد الألغاز الكامنة في ذات القيسي انسحب أثره على شعره مثلما انسحب على نثره".[3]

---

[1] . خليل، إبراهيم. "لغز الأنا في شعر القيسي ونثره" **مجلّة أوراق**، رابطة الكتاب الأردنيين، 2004، ص83.

[2] . ن.م.، ص83، 188، 193.

[3] . ن.م.، ص83 -88.

ونجده يعاني من ازدواجيّة الحضور والغياب في شعره، فهو في غيابه عن أرضه ووطنه، يبحث عن الأمان المفقود في كل مكان يرحل إليه، كما أنّه يبحث عن حضن أمّه الذي يشعره بالدفء في كلّ امرأة يعشقها، ويجد فيها ملامح أمّه وخصالها، وكأنّ الشاعر-وهو يفقد أرضه- يحاول انتهاك الأرض كلّها، والضرب في قفارها وجهاتها؛ بحثا عن لحظة أمان مفقودة، أو عن امرأة مختبئة في أحشاء الغيب. المرأة بهذا المعنى هي مستودع الشغف واللذة والألم والدهشة. هي كوكب الحياة البديلة، ومنارة الأمل الباقية،[1] يقول:

"أنت أميرة العشيرة،/ عكّاز هذا الضرير إلى سدرة المنتهى/ بيت روحي الحرام،/ سواك لزهري لا أرض،/ لا أفق غير براريك،/ غير سمائك مفرودة لطيوري".[2]

ويحيط المرأة بالقداسة من خلال البعد الديني في قصيدته (انطفاءات)، فيقول:

"في معجم البلدان/ يقرأ اسم حبيبته الحسنى/ يا حادي العيس أهجت الركبان/ يا والدتي قرّي عينا".[3]

ويجعل المرأة معادلا موضوعيا للوطن، فيقول في قصيدة (العرس):

"وكان لنعناعة الدار يمشي، ويزرع نرجسه فوق خوذته،/ حين دوى المخيم بالدبكة الدموية...كان يُزف لسارا/ البعيدة، سارا الوحيدة، كانت وجوه الصبيات سارا/ وكان المساء الرمادي، كان المدى الذهبي إناءً لأزهار سارا/ وكان يجمع أعضاءها من أغاني الطريدات في حلقات المخيم"[4].

يذكر الشاعر سارا ، فهي رمز للحبيبة، رمز للوطن، مع أن الشاعر جعلها امرأة وحيدة، لكنها تشبه سائر وجوه النساء، فسارا /فلسطين تحتفل في عرسها في جنبات المخيم، في عرس أسطوري تزف لعريسها الذي تخاطبه:

---

[1] . القيسي، محمّد. **الأعمال الشعريّة الكاملة**، 698/2.

[2] . ن.م.، 295/1.

[3] . ن.م.، 295/1.

[4] . ن.م.، 285/1.

"الزينة لحبيبي/ والأقواس المعقودة بالحنون الأحمر والأصفر لاستقبال حبيبي/ والريح تُصَفِّر في قصب الوديان، تهلل لقدوم حبيبي/ وحبيبي يأتي من ناحية البحر بمهري/ خمس زنابق في الكفين، وست زنابق في الصدر/ في منعطف الشارع كمنوا لحبيبي/ لكن حبيبي واصل سيري/ ها هي مركبة حبيبي"[1].

فها هي العروس تهلل لاستقبال موكب العرس، وتستقبل عريسها القادم بمهرها، بيديه خمس زنابق كادت أن تقتله لكنه استطاع الفرار والوصول لمحبوبته سارا، فهذا الجو الاحتفالي يحمل في طياته ثنائية الحزن والفرح، والموت والحياة.

أسطرة الواقع في بنائه الشعري:

طوّر القيسي في بنائه الشعري، وجعل له علامة مميّزة في الشعر الفلسطيني المعاصر. حيث استدار في شعره إلى التجربة، عن شعر الفكرة الذي يحتشد به الشعر الفلسطيني، ويكاد يطغى عليه. فهو لم يلجأ إلى التهويل وإثارة الضجيج في شعره، بل نجده ينحى باتجاه الهدوء والتواضع والبساطة في التعبير عن التجربة التي عايشها، ومداواة الجروح التي عانى منها، أو الوصول إلى الأمل الذي يقود خطاه؛ ليحوّل حياته إلى حياة أخرى أكثر غنى وأقلّ جفافا ووحدة.[2]

كما أنّه مال إلى التعبير المجازي والرموز والأساطير في نقل التجربة، وتوضيح الفكرة، أو الحالة الشعريّة التي يعيشها. فقد أكّدت هذا التوجه دراسة قدّمها عبد الله أبو هيف الذي بحث المبنى المجازي الشعري والسردي في شعر القيسي. حيث يقول:" ولطالما عمل القيسي على هذا المبنى في شعره الغنائي في مرحلته الأولى، وقد عوّل على هذا المبنى كثيرا في شعره الدرامي في مرحلته الثانية، بما ينفع في تخييل الموضوع القومي، حين يُشحن النصّ الشعري بالعلامات الدالّة. ويؤيّد ميل القيسي إلى المبنى المجازي نفوره من مباشرة الخطاب القومي، أو التعلّق بالتفاصيل السيريّة التي غالبا ما تستحوذ على المبدعين، على أنّ القيسي

[1] . ن.م.، 298/1.

[2] . القيسي، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مجلد2، ص681 -682.

يرتقي بهذه المباشرة أو الانغمار بهذه التفاصيل إلى مبنى مجازي يستوعب جموح المخيّلة، مثلما يحافظ على راهنيّة الموضوع القومي".[1]

ويمكن القول أنّ القيسي باستدعائه للشخصيات التراثيّة، وتوظيفه للأسطورة في شعره، ولجوئه إلى الرمز، واستحضاره للموروثات الشعبيّة والأمثال، والطقوس والشعائر والمرويات؛ قد أضفى على قصائده هالة خاصّة، ومنحها أبعادا وإيحاءات جديدة رفعت من قيمتها الدلاليّة والجماليّة.

وقد بدأ القيسي هذه المرحلة مع" كتاب حمدة" حيث الدخول في الترميز السيري وأسطرته مجازا إذ تندغم فيه الأم حمدة مع سيرة امرأة كنعانيّة تبعث في فضائها المتخيّل من جهة، وفي مرجعيّتها التاريخيّة من جهة أخرى، سيرة الوطن المأساويّة.

وبنى القيسي "كتاب حمدة" على الأسطورة المتمازجة مع الموروث الشعبي الفلسطيني، والأمثال والأغاني والترنيمات، ومنطلقه من المكان الأليف من قريتي صردا وجفنا قرب رام الله، حيث عاش الشاعر روحا من التكوين الرئيس، إلى الذاكرة التي ما تزال مشتعلة بوهج السيرة المرّة وعذابها المقيم. وجعل من الشتات الواحد نهوضاً للمكان الفلسطيني رموزا وإشارات للانتماء في أناشيد تكاد تشكّل مدارا ملحميّا لموضوع واحد يتكوّن في نبرات غناء شجيّ للوطن المستباح.[2]

وكان لوفاة والدة القيسي (حمدة) أثر كبير في نفسه، فهي ذات الحضور الواضح في حياته، وذات الأثر البارز في شعره، فهي أوّل من ربطه بالشعر، وأوّل محطة تزوّد منها بنفس الشعر الذي ألهب قريحته الشعريّة بعد ذلك. فلم يستطع الكتابة وهو في حالة الحداد الطويلة على وفاتها، لكنّ أوّل انفراج لهذه الحالة أثمر عن كتابة "كتاب حمدة"، لذا تتكئ حمدة على تنوع أسطوري بمرجعيات كنعانية، وفرعونية، وفينيقية من أورورا وممنون إلى دنيل وأقاهات، و"كتاب حمدة" قصيدة طويلة اعتمدت على أسطورة قديمة،

[1] . أبو هيف، عبد الله. "الشعري والسردي في شعر محمّد القيسي" **مجلّة أفكار**، ع(228) ،2007، ص16.

[2] . ن.م.، ص8-9.

هي أسطورة (أورورا وممنون). ممنون الذي مات وظلّت أورورا تبكي عليه وتندبه، وقيل: إنّ الندى الذي يتساقط على قبر ممنون هو دموع أورورا، والقيسي عكس الأسطورة لتكون أورورا هي النائمة في القبر، وهو ممنون المغنّي الذي يبكيها على أمل، لتكون أشعاره ندًى عليها، وليكون غناؤه ماءً على تربتها.[1]

ويفسر اتكاء الشاعر على الأبعاد الأسطورية في حديثه عن حمدة فيقول:

"وليكن أول كلامي،/ هذه الغزالة/ أول الحبر وآخره النائمة/ مثل جرس لا يقرع/ أو سمان مهاجر/ هل يعوزها صرخة لتفيق/ أم خنجر لأهوي!/ فلأكن يا إلهي أول الملائكة/ ولأرق أول الأباريق،/ وأول الصلوات/ على أجمل ما يسحبه/ التراب مني/ أول كلامي حمدة/ أول هذه التغريبة صوت اليمام/ فلتمل هذه الزيتونة بجذعي/ ولتنشد الزرازير جوعانة،/ دون زرع/ ولتتمهل هذه القاطرة قليلاً/ وهذه السحابة/ لتهطل مدرارة إلهي/ كفاتحة الأولياء/ آمين"[2].

يستحضر الشاعر البعد الواقعي ويربطه بالبعد الأسطوري، ليرتل أنشودة الوداع الأخير من خلال استحضار الطقس الجنائزي، فيعبر عن ذلك بألفاظ الوداع الأخير التي تحمل دلالات دينية يمزجها بدلالات المنفى، ويشير بذلك إلى حزنه ومنفاه.

ويمزج المرجعية الدينية بالمرجعية الأسطورية ليستحضر من خلالها جدلية الموت والحياة، فيجعل من موت حمدة بداية حياة جديدة حين تهطل السحابة مدرارة لتعلن بداية البعث بعد الموت.

ولا تتكامل الأسطورة إلا بتفجع الموجودات:

"لتأخذ اسمك الأشجار/ ولتنحن السنابل/ لينتبه هذا الفضاء/ وليتسع قليلا لحزني/ لهذه البئر العميقة،/ بعد نوم أورورا الأخير،/ وانبلاج هلال اليتم/

[1] . **الأعمال الشعرية الكاملة**، 106/2، وينظر بدير، فاطمة برّي. **حديث الذكريات**. د.م: الدار العربيّة للعلوم، 2004، ص126-127.

[2] . القيسي، محمد، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مجلد2، ص111-112.

ليترفّق تراب هذي الأرض/ وسائدَ لغيمة أورورا المتعبة/ ولتنم روحك بسلام، وأنا آوي إلى حديثي/ وأروي قرنفلة المنفى/ يابساً ورقراقاً، ضامراً ومرتعشاً/ كبيت على حدود التماس/ قبل أن أهوي مثل جبل،/ مثقل بأدباش أربعين نشيد/ ذاهباً في فتات نوافذ، ومرايا لم أقلها/ أمام بوابة أيامك العالية"[1].

فالقيسي (ممنون) يشعر باليتم الحقيقي بعد وفاة أورورا التي تعبت كثيرا في حياتها، فيعد لها قبراً يليق بها، ليوفر لها نوماً أبديّاً مريحًا يتخذ من السحاب وسادة، وطالباً من تراب الأرض أن يتلطف بها لتنام روحها بسلام، ويستسقي تراب قبرها بدموع عينيه، وكأنه يستنجد بدموعه ليتفتح برعم أورورا من جديد. أما هو فيعود إلى حديثه ونشيده مثقلاً بالهموم والأحزان، ضامراً مرتعشاً، منهاراً كجبل هوى، أو بيت خرب على حدود التماس، ويستحضر المنفى ليكون معادلا موضوعيا للموت فينكسر أمام ذكرياته.فيقول:

"وأبيض بين يدي أورورا/ ولتفتّح هذا البرعم الخرافي في بكائي/ وقتلي الذي لم يحن/ أبيض من عيني ممنون، ليسّاقط، ولتنح هذه الساقية/ مبلّلة غطاء الأرض كلّ يوم/ وكلّ يوم ليتجدّد عطرك، وخسارتي/ ليهدل ممنون، ليهدل في بلاغة المعزّين؟/ وصمت القصب"[2].

وهو الذي يعاني ويتألّم بشدّة لوفاتها، وهو كالمقتول من شدّة الحزن والبكاء. فدموعه غزيرة تبلّل الأرض، فكأنّها الساقية التي تروي الأرض ماء كلّ يوم. فممنون هو الخاسر الأكبر، الذي يعيش على ذكراها، ويتنشّق عبير عطرها وذكرياتها كلّ يوم.

ويقول الشاعر أيضاً:

"وسّدن أورورا لتنام/ ولوّحن لي من بعيد، بجرس الدمع/ لوّحن لي حين تغفو، لأرّد قلبي شراعاً،/ وأبكي تحت سروة هذه النافذة"[3].

---

[1] . ن.م.، 116/2.

[2] . ن.م.، 119/2.

[3] . ن.م.، 125/2.

وهو لا يطيق رؤية هذا المشهد الرهيب، فيطلب من النائحات أن يوسّدنها في القبر برفق لتنام بهدوء، وبعد الانتهاء أن يلوّحن له ليشرع في البكاء عليها ويخرج ما في قلبه من حزن. يخاطب القيسي أورورا وهو يدعو لها بالسلام بعد اللحد الأخير:

"ولتنم روحك بسلام/ وأنا آوي إلى حديثي/ وأروي قرنفلة المنفى/ يابساً ورقراقاً/ ضامراً ومرتعشاً"[1].

يبكي القيسي أمه حمدة (أورورا/ فلسطين) ويدعو لها أن تعيش بسلام في العالم الآخر، وللتعبير عن شدة حزنه وألمه على فراقها ويستدعي المخيم الذي هجر منه لينحني أمامها، وهو بذلك يضفي عليها ملمح القداسة:

"لينحن المخيم لأورورا/ أرملة الكائنات/ سيدة الهجرات المتتابعة، وحاضنتي/ لينحن الظهر مثل قوس،/ وليشقني الهدوء في تاج غيابك الفضي/ غيابك العميق في السرير"[2].

يستخدم الشاعر البعد الرمزي (الأم/فلسطين) التي عانت من الظلم والقهر والهجرات المتتابعة، ويركن إلى الأسطورة فهي خياره الوحيد للتعبير عن آماله وأحلامه، ويحقق من خلالها ما لم يستطع تحقيقه على أرض الواقع:

"وبعد بيروت، ما الذي يتبقى لنا؟/ غير المراثي والمزامير/ مراثي الكنعانيين/ ومزامير العرب البائدة"[3].

كما نجد ذلك أيضاً في "كتاب الابن" الحافل بالإشارات إلى الرموز الإنسانيّة والقصص التراثية. ويشير عادل الأسطة إلى هذه الظاهرة في شعر الشاعر بقوله:" وسأعرف وأنا أقرأ كتاب القيسي أن جبرا إبراهيم جبرا له باع في هذا الأمر، فقد أشار القيسي إلى مقالات جبرا وإثرائه لها برموز ثقافية وأسطورية عالمية، وقد سار هو على نهجه، فكتاب القيسي" كتاب

[1] . ن.م.، 116/1.

[2] . ن.م.، 117/1.

[3] . ن.م.، 110/3.

الابن" يحفل بالإشارات إلى الرموز الإنسانية وبالقصص التراثية كقصة الطائر الأخضر، ولا تختلف روايته "الحديقة السرية" عن هذا".[1]

كما أنّ الشاعر وظف الأسطورة باعتبارها موردا سخيا يستغله الشاعر ليدلل على طاقاته الإيحائية، وتجلت هذه الطاقة في قصيدة "نشيد أقاهات مريضة"، فقد استعان بأسطورة "دانيل الفنيقيّة" الذي نذره والده للإله "إيل" ليناضل على الدوام من أجله، وحزنت عليه زوجته "أقاهات" كثيرا بعد قتله، بعد صدور أمر له بتدمير هيكل لبعل. حيث ظهر ذلك كلّه في "مراثي أوغاريت".[2] ينتحب محمد القيسي لفراق أمه ووطنه فيقول:

"تلك التي تقيم على الكآبة،/ ادفع بها إلى النور/ ادفع بها إلى البهجة،/ فتقوم أقاهات الجريحة بتقديم القرابين إليك/ بادر لمساعدة سليلك،/ واحنو على تلك التي تنتحب،/ اجعل رأس ابنك يضيء،/ إنّها تتوجّه وحيدة إليك..."[3].

فقد زاوج الشاعر بين معاناته ومعاناة "أقاهات" التي تبتهل في صلواتها إلى الإله "إيل" كي يعيد زوجها دانيل إلى الحياة، ويبتهل الشاعر من خلال أسطورة أقاهات فيشدو بصوته الحزين على فراق من يحب، وهذا يتفق مع حلم الزوجة وحلم محمد القيسي في العودة إلى الوطن، فصورة اليافع الأخضر بما تحمله من دلالات الانبعاث والتجدد واضحة في قوله:

"اليافع الأخضر، اليافع حبيبي/ من كفي، الماء، أشربته،/ والخبز أطعمت من طابون أمي/ لمن أستحم يا أخوتي/ على أول الدرج لمن أرش عطري"[4].

ويلجأ القيسي إلى الابتهال والصلاة في محراب ثور كلداني قدمت له الهدايا كقرابين عبر ابتهالات أقاهات، فيستحضر ماضيها بحاضره:

---

[1] . الأسطة، عادل. "سيرة الطرد والمكان في ذكرى محمد القيسي" **صحيفة الأيام**، 2011، نقلا عن: http://www.facebook.com/Dr.Adel.Osta/posts/374071006002440

[2] . القيسي، محمّد، **الأعمال الشعريّة الكاملة**، 464/3.

[3] . ن.م.، 465/3.

[4] . ن.م.، 468/3.

"ليأت اليافع الأخضر دانيل/ ليأت إليَّ مثل ثور كلداني/ وأنا بحلي هداياه أتزين"[1].

فهو حين يقول (فليأت) إنما هو يحاور النص الغائب ويتفاعل معه، فيزاوج بين النص الشعري والأسطورة "تسمح للنص أن يتنزل منزلة إعادة الإنتاج، لا بل منزلة الإنتاجية".[2]

وفي قصيدة "الدرج الأسفل إلى أبها لكش" نجد دلالات الغياب والموت حاضرة بما فيها من إحساس فظيع بالموت، ورهبة من العالم السفلي حيث لا رفيق للشاعر سوى الخوف فيقول:

"غير هذه القطيعة سرجي/ مبكراً إلى هوائي في غرف أخرى/ حيث تهيأ لي ميتات طازجة/ جوار شرفة الإيقاع/ ومتروكاً إلى الغياب أراني/ مثل عنب الستينات/ غير آبه بزينتي"[3].

كما وظف أسطورة بعل بهدف ربط الماضي بالحاضر فيقول:

"وليس على "أوغاريت" سوى الندب،/ يا ابنة/ ضلعي/ وأختي/ وحيد أنا/ لم يعد سيداً للغيوم ولا ملكاً أو إلهاً/ لم يعد "بعل" يرعى الحقول،/ ويستظهر العاصفات فلا زرع طال،/ البلاد إذن دخلت في الحداد"[4].

يستلهم الشاعر أسطورة بعل الذي يحب النظام ويكره الفوضى، يعمل للحياة ويكره الموت، يحمل بيده عصا ترمز إلى الخصب وبيده الأخرى صاعقة ترمز إلى أنه رب البرق والرعد، وبالتالي المطر.[5]

---

[1] . ن.م.، 468/3.

[2] . بارت، رولان. "نظرية النص" ترجمة: منجي الشملي. **حوليات الجامعة التونسية**، ع(27)، ص81.

[3] . القيسي، محمّد، **الأعمال الشعريّة الكاملة**، مجلد3، ص389-390.

[4] . ن.م.، 532/2.

[5] . فريحة، أنيس. **ملاحم وأساطير من رأس شمرا**. بيروت: دار النهار للنشر، 1980، 54/1-61.

ويظهر الشاعر عمق المأساة الفلسطينية، فالحياة تعطلت وبعل بن إيل مقيد لا يقدم الخير والخصب، وهو بهذا يستخدم الأسلوب الذي اتبعه في الانعكاس الأسطوري وليدلل على حالة الحزن والقهر اللذين يشعر بهما الشاعر فيقول:

"النهار حزين لنفسه وأوغاريت صامتة/ الأودية لا تهدر،/ الغيوم لا تصرفها العاصفة/ لأن بعل بن إيل/ مشدود إلى جبل، ويداه مقيدتان/ من يعزف الرعد، ويجزل العطايا"[1].

يستخدم الشاعر أسلوب الانعكاس فيعكس أسطورة بعل ويحور في بنيتها لتتوافق بذلك مع رؤيته الشعرية التي أراد من خلالها أن يبث حزنه وقهره من الواقع المأساوي المعيش، ويبدو أن الشاعر استطاع أن يربط بعلا بجبله، ليدلل على عمق المعاناة لديه، فقلبه مقيد بفلسطين، لكنه لا يستطيع، في منفاه، أن يقدم الأعطيات والقرابين.

ويستحضر أسطورة "جلجامش" الذي ذهب ليبحث عن عشبة الخلود فيجدها، لكن الحيّة تسرقها، لذا يتجدد جلدها في كل عام لأنها أكلت العشبة، فيصاب جلجامش بالخيبة ، ويبدأ التفكير من جديد ليصل إلى نتيجة مفادها أن الخلود ليس في العشبة ولكنه في العمل الصالح، ويحاول الشاعر أن يوظف هذا المفهوم في قصيدته"إلى أخر الدغل أمشي إلى آخري" فيقول:

"لا أقول وداعاً لقرميدها المتنائي/ لأزهارها في الحديقة/ يانعة بعد عامين/ من ليل أور العميق،/ ولست أنا بالشفيق علي،/ سأمشي إلى آخر الدغل"[2].

فالبطل (جلجامش/القيسي) يبكي فراق مدينته، لكنه مصمم على المسير في مشواره ومواجهة الصعاب إلى آخر الدغل، وهو بهذا يوحي لنا بقصة جلجامش، ودخوله إلى (الدغل) أشجار الأرز، ومحاولته قتل الوحش (خواوا) الذي لم يقو أحد على مقاومته،

[1] . القيسي، محمد. **الأعمال الشعرية الكاملة**. 452/3.

[2] . ن.م.، 539/2.

"وتشير الأسطورة إلى أن جلجامش لم يبدأ في رحلته إلا بعدما أدرك بأنه سيموت شأنه شأن كل الأحياء فصمم على الرحلة إلى ذلك الدغل".[1]

فشاعرنا /جلجامش يبكي مدينته ويفارق مملكته ويهيم على وجهه:

"سأمشي إلى آخر الدغل/ وما من سرادق منصوبة/ ومستوحشاً في مداري أجوس".[2]

وفي قصيدة أخرى يسترسل في استدعاء هذه الشخصية الأسطورية، باحثاً عن سر الخلود، فيستحضر أحد عناصر هذا الخلود وهي وردة أنكيدو التي قد تطيل العمر:

"حتى لينهض جلجامش من رقدته/ مستمهلاً موته/ معبراً للرياح/ نشيجه الشبكي/ على وردة أنكيدو الساطعة".[3]

وفي قصيدة أخرى يتابع الشاعر هذه الشخصية الأسطورية، فيتوصل من خلالها إلى أن بحث "جلجامش" الدائم عن الخلود هو ضرب من الجنون فيقول:

"السهوب التي تعوزني حسرة يوسف،/ وجنون جلجامش،/ لأحيط بها/ وأعزف نشيدي".[4]

كذلك لجأ الشاعر إلى استخدام أسطورة يونانية تدعى (طروادة) وهي أسطورة تدل على الحيلة التي صنعها "الأليسيون" في مدينة طروادة، وتتمثل هذه الحيلة بصناعة حصان كبير الحجم، فيكون في داخله أقوى الرجال من "الهيلانيين" حتى إذا حل الليل خرج الرجال من بطن الحصان، وفتحوا أبواب المدينة.[5]

---

[1] . **ملحمة جلجامش**. ترجمة سامي سعيد الأحمد. بيروت: دار الجيل، بغداد: دار التربية، 1984، ص11.

[2] . القيسي، محمّد. **الأعمال الشعريّة الكاملة**، 541/2.

[3] . ن.م.، 358/3.

[4] . ن.م.، 574/1.

[5] . فرجيل. **الإلياذة**، ترجمة: عنبرة سلام الخالدي. ط.2. بيروت: دار العلم للملايين، 1978، ص11.

استحضر الشاعر هذه الأسطورة إشارة إلى حيفا وما حلَّ بأرضها، فيقول في قصيدته "الحداد يليق بحيفا":

"ويحضن صفصافة وهي تبكي، تغني البعاد/ وتسقط أوراقها/ وطروادة القلب غارقة في الحصار، ونهب لسيل الجراد/ فماذا تقول الجبال وأحراشها والوهاد؟/ وماذا يقولون، ماذا يقولون.../ ماذا..."[1].

والشاعر ينتظر حصان طروادة، ويتقنع القيسي بأحد أبطال هذه الحرب "أوديسيوس" أو "عوليس" الذي يبحث عن وطنه المفقود، ليسقط عليه الشاعر معاناته في المنفى فيقول في قصيدة "تعليل البعد":

"كان ذلك قبل ثلاث سنين، وقبل تنقل عوليس في/ الأرض، دون وصول إلى سروة عند سور، وقبل/ وقوعي في شرك الناي، كنا هناك في المهرجان وكنا/ أتينا من الأغنيات إلى الأغنيات، عزفنا مع العازفين/ رشفنا سلافة أيامنا وانتظرنا"[2].

وفي قصيدة أخرى بعنوان "حين قال سامر: لا في المواجهة الأولى" يلتقي سامر مع البطل الأسطوري "تموز" الذي يضحي بنفسه لإسعاد غيره:

"الليلة يحتفل وحيدا في عرسه/ يبدع موالا، وأناشيد جديدة/ تحمل رائحة القمح الأسمر/ والأرض الظمأى، والعشب اليابس/ الليلة يمنحنا سر الخصب، وبدء التكوين"[3].

وهو بهذا يستحضر حكاية "تموز وعشتار"، فهبوط تموز إلى العالم السفلي يصيب الأرض بالجدب والفناء، فترحل عشتار للبحث عنه في العالم السفلي، وفي غياب "عشتار" تتعطل عاطفة الحب والإخصاب لولا تدخل من الإله "إيل".

---

[1] . القيسي، **الأعمال الشعرية الكاملة**، 224/1.

[2] . ن.م.، 627/2-628.

[3] . ن.م.، 164/1.

ختامًا فإنّ القيسي رائد من رواد الشعر العربي والفلسطيني، عاش كغيره من أبناء شعبه من النفي والغربة والتشريد، لكنه انتفض بشعره ليعبر عن حزنه وألمه، ورفضه للواقع الأليم، فغرد بأشعاره حتى بح صوته وسكنت دقات قلبه.

والمرأة بمختلف تجلياتها شاركت القيسي آلامه وأحزانه، فأحاطها بهالة من القداسة أثرت موهبته الشعرية.

تميز القيسي بثقافته وسعة اطلاعه، فاستثمر كل ما حصل عليه من علم ومعرفة ليقاوم بكلمته، فجاء شعره حافلا بتاريخ الأمم والشعوب، وحرص على استثمار فن الكلمة ليستحضر الموروث الفلسطيني بكل مصادره، وليدلل على خصوصية الموروث الفلسطيني، وتوظيفه للأسطورة لم يكن عبثاً وإنما له دلالة باعتباره وسيلة شعرية يستطيع من خلالها التعبير عن الحزن والقهر وعن الحب والحلم والألم، يتوسل بالأسطورة للتحرر من الاحتلال الذي لا ينكسر، ومن القهر على الصعيدين الفلسطيني والعربي.

وهكذا تأرجح القيسي بين الواقع المرير الذي عاش فيه وسعى إلى تغييره، ونشد عالما أفضل منه وأجمل، وبين الأسطورة التي وظفها توظيف العارف بها الواعي لأهدافها.

المصادر والمراجع:

بدير، فاطمة. **حديث الذكريات**. ط.1. د.م: الدار العربيّة للعلوم، 2004.

الجعيدي، محمد عبد الله. **موسوعة مصادر الأدب الفلسطيني الحديث**. ط.1. دمشق: مؤسسة فلسطين للثقافة، 2007.

خليل، إبراهيم، **محمد القيسي. الشاعر والنص**. ط.1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1998.

صدوق، راضي. **شعراء فلسطين في القرن العشرين**. توثيق انطولوجي. ط.1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2008.

فرجيل. **الإلياذة**. ترجمة: عنبرة سلام الخالدي. ط.2. بيروت: دار العلم للملايين، 1978.

فريزر، جيمس. **أدونيس أو تموز**. ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا. ط.3. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982.

فريحة، أنيس. **ملاحم وأساطير من رأس شمرا**. بيروت: دار النهار للنشر، 1980.

القيسي، محمد. **كتاب الابن، سيرة الطرد والمكان**. ط.1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997.

القيسي. **الأعمال الشعرية الكاملة**. ط.1، ط.2. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنشر، 1987.

ملحمة جلجامش. ترجمة: سامي سعيد الأحمد. بيروت: دار الجيل، بغداد: دار التربية، 1984.

المجلات والمواقع الإلكترونية:

الأسطة، عادل. "سيرة الطرد والمكان في ذكرى محمد القيسي" **صحيفة الأيام**، 2011.
http://www.facebook.com/Dr.Adel.Osta/posts/374071006002440

الأطرش، ليلى. "الشاعر محمد القيسي" **مجلة أوراق**، ع(18-19)، مطبعة السفير، عمان، نيسان2004.

بارت، رولان. "نظرية النص". ترجمة منجي الشملي، **حوليات الجامعة التونسية**، ع(27).

خليل، إبراهيم. "لغز الأنا في شعر القيسي ونثره"، **مجلّة أوراق**، رابطة الكتاب الأردنيين، مطبعة السفير، 2000.

الرملي، محسن. "لقاء غير منشور مع الشاعر الراحل محمد القيسي، إن الكتابة الآن أصوات بلا صدى"، عمان، رابطة الكتاب، 1993/10/17-
http://ofouq.com/today/modules.php?name=News&file=article&sid=2939

شبانة، عمر. "محمّد القيسي الشاعر الغنائي الجوّال رحل عن 59 سنة" **صحيفة الحياة**.
mailto:http://ofouq.com/today/modules.php?name=News&file=article&sid=2939

عبيد، محمّد صابر. "محمّد القيسي سيرة الموت ونبوءة الرؤيا الشعريّة" **منشورات اتّحاد الكتّاب العرب**، دمشق،2005.
http://www.nizwa.com/articles.php?topic=59&page=30

القيسي. حوار أجراه منذر عامر، "أبحث في المكان عن المكان وعني" نشر في **صحيفة "دفاتر ثقافية"**، رام الله، 1999/2/2.

مفرح، سعدية. "محمد القيسي مغني فلسطين المتجول" **مجلة العربي**، ع618، أيار2001.

أبو هيف، عبد الله. "الشعري والسردي في شعر محمّد القيسي"، **مجلّة أفكار**، ع(228)، 2007.

ملحــق

أهم أعمال القيسي الشعرية:

1- "راية في الريح" شعر (1969).

2- "خماسية الموت والحياة" شعر (1971).

3- "رياح عز الدين القسّام"-مسرحية شعرية- (1974).

4- "الحداد يليق بحيفا" شعر (1975).

5- "إناء لأزهار سارا، زعتر لأيتامها" شعر (1979).

6- "اشتعالات عبدالله وأيامه" شعر (1981).

7- "أغاني المعمورة" أغاني للفتيان (1982)

8- "أرخبيل المسرات الميتة" شعر (1982).

9- "في هوى فلسطين" (1982).

10- "كم يلزم من موت لنكون معاً" شعر (1983).

11- "الوقوف في جرش"-مطولة شعرية- (1983).

12- "منازل في الأفق" (1985).

13- "الهواء المقنع" شعر (1986).

14- "كل ما هنالك" شعر (1986).

15- "كتاب الفضة" شعر (1986).

16- "الأعمال الشعرية 64-84" (1987).

17- "عازف الشوارع" -نصوص منتخبة- (1988).

18- "كتاب حمدة" (1988).

19- "شتات الواحد" شعر (1989)

20 - "عائلة المشاة" نص (1990).

21- "مضاءة بجمالها ومضاء أنا بحزني" شعر (1990).

22- "مجنون عبس"(1991).

23- "كل هذا البهاء وكل شفيف" شعر (1992).

24- "صداقة الريح" شعر (1993).

25- "الموقد واللهب" حياتي في القصيدة (1994).

26- "أذهب لأرى وجهي" شعر (1995).

27- "ناي على أيامنا" شعر (1996).

28- "مراثي أوغاريت" شعر (1996)

29- "كتاب الابن -سيرة الطرد والمكان" (1997).

30- "ثلاثية حمدة" (1997).

31- "ماء القلب" (1998).

32- "مخطوطات الموسيقي الأعمى" (1999).

33- "مخطوط في العشق" مختارات (2000).

34- "الأيقونات والكونشيرتو" شعر (2001).

35- "أباريق البلور" (يوميات صحراوية) سيرة (2002).

36- "الدعاية المرة" مقاربات القصيدة، المرأة، المنفى (2002).

37- "منمنمات أليسا" شعر (2002).

38- وأصدر القيسي أعماله الشعرية في ثلاثة مجلدات عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام (1999).

39- رواية "الحديقة السرية" (2002).

40- ورواية غير منشورة كان أرسلها إلى دار الآداب قبل يوم من إصابته بالجلطة الدماغية وعنوانها "شرفة في قفص".